الدعوة الإسلامية والحفاظ على البيئة

الدكتور/ إسماعيل الدفتار(*)

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلي الله علي آله وصحبه ومن اهتدي بهداه، وبعد؛

ابتدأ بكلمة أشار إليها الأخ الدكتور/ شوقى دنيا، بحثت عن كلمة البيئة بهذا اللفظ وبالمعني المقصود فلم أجد إلا ما جاء في آيات القرآن الكريم ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾(١) ثم في قصة ابني آدم ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾(٢) ثم أيضا ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا..﴾(٣) وجدت أن هذه المادة تدور حول ما يتفاعل معه الإنسان في الكون كله. يعني بالنسبة لجميع عناصر الكون وباعتبار أن الإنسان عنصراً من عناصر الكون، كل ما يتفاعل معه الإنسان فهو من البيئة، وسواء كان هذا الشيء حسياً مثل الدار والبيوت والجبال أو كان معنويا مثل الإثم، والقرآن الكريم قد جمع بين الأمرين الحسي والمعنوي في قوله

(*) الأستاذ بكلية أصول الدين.

(١) سورة الأعراف : الآية ٧٤.

(٢) سورة المائدة : الآية ٢٩.

(٣) سورة يونس : الآية ٨٧.

تعالي: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾[1] وبالتالي فكانت البيئة من المنظور الإسلامي شاملة بما يتفاعل مع الإنسان حسياً ومعنوياً، وسواء كان خيراً أو كان شراً، وإذا كان الأمر كذلك فعلاقة الإنسان بعناصر البيئة تكون بالطبع وبالضرورة على قانون المأمورات والمنهيات من الناحية الشرعية.

نستطيع أن نتبين كيف كان الإسلام مفصلاً وموجهاً لعلاقة الإنسان بكل عنصر من عناصر البيئة. نجد أن في كتب الفقه وهي تبدأ بكتاب الطهارة، تبدأ بذكر أنواع المياه، وتبين أن المياه ما يصح التطهر به ومالا يصح التطهر به، وتبين متي يكون الماء طاهراً ومتي ينجس الماء. إذن هي تعالج علاقة الإنسان بعنصر الماء في كل الأحوال المتوقعة بالنسبة لحركة الإنسان.

ثم إذا جئنا بالنسبة للأرض عموماً كأرض، طبعاً ما جاء في القرآن الكريم بالنسبة لتسخير ما في الأرض أمره واضح، وجدت حديثاً للإمام الطبرانى ولم يوجه إليه أي طعن إلا بمقال في إسناده، وهذا يعني أن المحدثين لم يطعنوا في المضمون، وبالتالي إن لم يكن هذا حديثاً فهو قول مأثور في ظل الفكر الإسلامي، وبالتالي فالمعني صحيح وإن لم يصح نسبته للنبي ﷺ، مع أن الضعف ليس شديداً، الحديث فيه طول كان يقول في آخره تحفظوا الأرض فإنها أمكم، وما من أحد أو ما من عامل يعمل عليها بخير أو بشر إلا أخبرت به بالطبع هذا يؤيده ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[2].

هذا بالنسبة للأرض، بالنسبة للحيوان نجد في الفقه الإسلامي الأمر

(١) سورة الحشر : الآية ٩.

(٢) سورة الزلزلة : الآية ٤.

واضح في كتابين كتاب الصيد وكتاب الذبائح، كتاب الصيد كما يتحدث عن الحيوان يتحدث عن الطير، فأوضح علاقة الإنسان بالحيوان وبالطير، كذلك أوضح الفقه الإسلامي علاقة الإنسان بالنبات، وآيات القرآن الكريم كثيرة في تحديد هذا المعني، تذكر مثلاً في بعض الآيات بعد أن يتعلم عن أنواع النبات ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[1] ويذكر في البعض الآخر ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ..﴾[2] في آية أخري ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[3] فالحديث بالنسبة للنبات أمره واضح، بالنسبة لعلاقة الإنسان بالإنسان طبعاً تشريعات الإسلام وتوجيهات الإسلام واضحة في هذا المعني، وطالما قلنا أن كلمة البيئة بالمفهوم من خلال الآيات القرآنية تشمل الجانب المعنوي، فهذا أيضاً داخل في هذا الإطار.

أمام فيما يتصل بالهواء فبالطبع الإسلام والحمد للّه أوصي بالروائح الطيبة، وحذر من الروائح الكريهة باعتبار أنها تنتقل مع الهواء وتؤذي الإنسان، والنبي عليه الصلاة والسلام تكلم عن أنواع الرياح مثل " نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالذبور" بالنسبة للريح العاصف. أقول كل عناصر الكون حدد الإسلام علاقة الإنسان بها، والآيات واضحة بالنسبة للشمس والقمر والنجوم وما إلى ذلك. لكن يبقي التعامل مع هذه العناصر، طبعاً التعامل تعامل الاستثمار، تعامل الاستغلال لمنفعة الإنسان أيا كان الإنسان؛ لأن المنفعة بالنسبة للإنسان، ليست منفعة شخصية بالنسبة للمسلم وإنما هي منفعة

(١) سورة النازعات : الآية ٣٣.

(٢) سورة الأنعام :الآية ٩٩.

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٤١.

عامة "خير الناس أنفعهم للناس" كذلك أيضا يتجنب الاستخدام الذي يمكن ان يفسد؛ لأن الحديث الشريف "إن الله ينهاكم عن إضاعة المال" والموارد وما حول الإنسان هو مما يتموله الإنسان سواء كان نباتاً أو حيواناً أو أرضاً أو ماءً أو ما إلى ذلك، كل هذا داخل في هذا الإطار؛ فبالتالي منهج الإفساد ممنوع بالنسبة لهذا، وسواء كان إفساد على نفسه أو على غيره بقانون «لاضرر ولا ضرار».

بالنسبة لتنقية البيئة من التلوث انظر نظرة مبدئية: إن الإسلام يربي المسلم على تحمل المسئولية، فلما يربيه على تحمل المسئولية لابد أن يربيه في الدائرة الضيقة لينتقل بعدها إلى الدائرة الواسعة، إلى الدائرة العامة، فبالنسبة كما سمعنا لقضاء الحاجة الأحاديث الموجودة في سنن أبى داود والترمذى وغيرهم من كتب السنة تبين أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يختار المكان البعيد بالنسبة لقضاء الحاجة، وأنه كان يختار المكان الذي يتبول فيه كما يختار المنزل الذي يجلس فيه، أي يبحث عن المكان الملاءم. وجدت حديثاً يرويه ابن عمر، ويقول: أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يبعد حتى المغمس، وبالطبع حكمه "المغمس" الذين ذهبوا إلى مني– قريب من وادي محَسب بالنسبة لها، والمسافة بينه وبين مكة مسافة طويلة، راوى الحديث عن ابن عمر يقول يبلغ مرحلتين من المراحل التي كانت معتادة عند العرب، فهو يضرب هذا مثلاً في البعد، لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان موجوداً في المدينة بالنسبة للتشريعات وبيان الأحكام، وابن عمر يتكلم عن هذا الحديث حين كان النبي ﷺ في المدينة؛ ليكون بعيداً عن تلوث البيئة القريبة بالنسبة للإنسان.

بعد هذا يأتي دور الوضوء ودور الصلاة، الوضوء يكون بالماء الطاهر

المطهر، وبالنسبة للصلاة يختار المكان الطاهر وأيضاً الثوب الطاهر، ولابد أن يكون البدن طاهراً، فتنظيف كامل، والقرآن الكريم قال هذا على الإجمال ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّه يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[1] إذن الطهارة والبعد عن التلوث خطوة أولي يتدرب عليها المسلم وهو يقدم على الصلاة.

بالنسبة للمسجد، المسجد بيئة مصغرة لتدريب الإنسان على صيانة البيئة وعلى المحافظة عليها من التلوث، فالطبع المسجد لابد أن يكون طاهراً، هذه واحدة، مع وجود الطهارة فيه لابد أن يكون نظيفاً حتى ولو كانت الشوائب الموجودة فيه طاهرة لابد أن ينظف، والرسول ﷺ كان يأمر بتنظيف المساجد وتطهيرها وتجميرها أي تبخيرها لتكون رائحتها طيبة، وتذكر الأحاديث الشريفة أن امرأة سوداء كان تقم المسجد أي تكنسه، توفيت وكانت وفاتها بالليل ولم يؤذن النبي ﷺ بها إشفاقاً عليه؛ فلما أصبح وعلم قال: لماذا لم تعلموني ثم ذهب إلى قبرها وصلي عليها صلاة الجنازة، وقال: إن صلاتي عليهم تملأ قبورهم نوراً. فالمسألة إذن أن النبي عليه الصلاة والسلام يعلن تكريم من يقم المسجد.

إذا كان المسجد خارج بيت الإنسان، فالرسول عليه الصلاة والسلام أمر أن تتخذ المساجد في البيوت وأن تُطهر وتنظف، ليس معني ذلك مسجد عام، لكن المسجد مكان للصلاة في داخل البيت الإنسان، يعتني به أكثر من بقية البيت، مع إن الحديث الموجود في السنن أيضاً يأمر بتنظيف البيوت وبتنظيف الأفنية أي ساحة البيوت، فيقول للنبي ﷺ: «نظفوا بيوتكم وأفنيتكم وأرحالكم

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٨.

(الأمتعة) حتى تكونوا في الناس كأنكم شامة» أي يكون المسلم علامة في النظافة والحديث أيضا موجود «تنظفوا فإن الإسلام نظيف».

فتنقية البيئة عموماً، الإسلام وضع القواعد ووضع التوجيهات إليها. يبقي مسألة تنقية البيئة من التلوث بالنسبة للّهواء، كلنا يحفظ حديث نهي من أكل ثوماً أبو بصلاً أن يحضر إلى مساجدنا، أماكن التجمعات، لماذا؟ لأن الهواء فيها يتغير والرائحة تصبح منفرة، فالنبي عليه الصلاة والسلام أبعده، فإذا كان مثل هذا وهو حلال لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال إنني لا احرم حلالاً (بالنسبة للثوم والبصل). لكن أناجى من لا تناجي، يعني أنا أتكلم مع الملائكة، وإذا كنت أتكلم مع الملائكة لا أريد أن تكون الرائحة خبيثة؛ فأي رائحة خبيثة تصدر من أي مصدر تكون من باب أولي ممنوعة فيها، والإسلام يحرص على أن المسلم يمنع هذا.

أيضا فيما يتصل بالتلوث السمعي، أي الصوت، القرآن الكريم واضح ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[1] من الأوصاف التي تضمنتها الأحاديث بالنسبة للمنافقين أنهم يكثرون الصخب، أي ارتفاع الصوت، ومن أوصاف نبينا ﷺ أنه ليس بفحاش ولا لعان، ولا صخاب في الأسواق، وأيضا القرآن الكريم علمنا كشيء تدريبي في بيئة غيرة ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾[2] والإمام مالك اعتبر أن ذكر رسول اللّه ﷺ كشخصه وهو حي، فرفع الصوت من ذكره كرفقه عند شخصه صلي اللّه عليه وسلم، وبالتالي يكون هذا تدريبا

(١) سورة لقمان : الآية ١٩.

(٢) سورة الحجرات : الآية ٢.

على منع التلوث السمعي.

أما بالنسبة للمحافظة على البيئة. فأود أن أعطي مثالاً فيها، الكلاب تنفع وتضر، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لولا الكلاب أمة لأمرت بقتلها» ثم بين أن الإنسان يستخدمها لحراسة ماشية أو غيرها. وبالرغم من هذا الكلام لا تجد أمراً ولا توجيهاً نبوياً بإبادة الكلاب إلا ما يتحقق ضرره، وليس ما يحتمل ضرره، يعني "خمس من الفواسق يقتلن في الحل والحرم عد منها الكلب العقور.

فالإسلام إذن بالنسبة للمحافظة على الموارد في البيئة وعلى الثروة الحيوانية وعلى أي ثروة من الثروات الموجودة فيها يوصي بها، وليس هناك ما يدعوا إلى إبادتها بأي شكل من الأشكال إلا إذا تحقق الضرر، لأني أدفع ضرر أقل لأبقي على مصلحة أكبر، وهي مصلحة الإنسان في هذه الحياة بالنسبة للتنمية، تنمية موارد البيئة، بالطبع ما ورد في أمور الزراعة في حديث الإمام مسلم وبين أن الإنسان حين يزرع، لا يزرع ليأكل ولا ليأكل البشر وإنما يزرع ليأكل الحيوان والطير «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً؛ فيأكل منه إنسان أو بهيمة أو دابة أو طير أو شئ» فمعني هذا أن الإنسان حينما ينمي موارد الزراعة في البيئة إنما ينميها من أجل بني الإنسان ومن أجل ما يمكن أن يكون في منفعة الإنسان.

هذه بعض لمحات أردت أن أقدمها في معالجة الإسلام لشئون البيئة، وطبعاً اختتم كلمتي بأن أقول: نحن نعلم أن الإسلام كل متكامل، وأن الإسلام يبدأ من العقيدة بوحدانية اللّه عز وجل، وينتهي إلى فعل الخير ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة ولو بالإمساك عن الشرب فهذا المنهج ينبغي أن نحرص على تربية أجيال المسلمين على هذا المنهج أنها توفر لنا الجهد وتوفر لنا الوقت،

وحينما نحتاج إلى أمر من الأمور لا نحتاج إلى شرح ولا إلى إيضاح ولا إلى إثارة كوامد، إنما نحتاج فقط أن نقول مطلوب كذا، ويفهم أن هذا مطلوب دينياً، وأنه مسئول عن ذلك بين يدي اللّه عز وجل.

ومن الأشياء التي سعد بها الإنسان كثيراً، في بعض القراءات قرأت أسماء كتابين للإمام السيوطى– والإمام السيوطى من رجال القرن التاسع الهجري– ويتضح من عنوانهما الحديث عما يتصل بالبيئة للأنهار، اسم الكتاب الأول "تحريم البروز بالبناء في شطوط الأنهار"، الكتاب الثاني "الجهر بمنع البروز إلى النهر" قد يكونا كتاب واحد قد يكون كتابين اللّه أعلم؛ لكن هذا يدل على أن المسلمين من خلال تعاليم الإسلام لم يفعلوا أمثال هذه الأشياء، حتى كان في مسألة واحدة، فمسألة البروز ألف فيها كتاب ولو بحثنا لوجدنا كتبا وكتبا في كل جانب من الجوانب.

وأسأل اللّه تعالي أن يوفقنا جميعاً إلى ما يحب ويرضي

وأشكركم والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته